الموسيقى والأدب يلتقيان

بيتهوفن وتلحيناته الخالدة

كان رجلٌ يسيرُ ذات مساء بين المزارع والحقول، والفصلُ خريف والشفقُ يلقي بظلاله على الارض. وكان الرجلُ كئيباً كآبة المتفوّق الفقير الذي فُرض على عبقريته احتمال المفاسد والمذلّة والهوان. وكان كئيباً كآبة القلب الكبير عاش على غمّ وحرمان، ولم يجدْ بين بني الانسان روحاً تبادله عواطف الاعزاز والحنان. وكان كئيباً لاستشعاره بأنّ مصيبةً مجهولة ستدهمه عمّا قريب.

كدّهُ التعبُ، والمنازلُ في الخلاء أشعلت مصابيحها ذات النور المرتعش. فقصد إلى أقرب تلك المنازل يطلبُ الراحة قبل استئناف السير. ولحظ اهلُ الدار نظر الضيف موجهاً إلى البيانو المفتوح فدعوهُ الى التوقيع عليه لو كان له بالفنّ إلمام.

جلس الغريب إلى البيانو وعزف. حتى إذا ما أحكمت أناملهُ الايقاعات الخالقة نهض فرأى وجوه القاعدين حولهُ وقد لاحت عليها سِماتُ الدهشة والتأثر، وأبصر الشفاه منهم متحركةً فكاد يُدركُ ما ينطقون به. إلاّ انه لم يسمع اصواتهم فاستفهم عمّا يقولون.

فردّوا عليه يكررون السؤال: «كثيراً ما حدّثونا عن موسيقيٍّ عظيم اسمهُ بيتهوفن. وإن من يعزفُ مثلما عزفتَ، ويخلقُ من أوتار النحاس الروحَ التي خلقتَ فذلك، لابدَّ أن يكون هو بيتهوفن. أفأنت بيتهوفن؟»

كانت الشفاهُ تتحرك والرجل يستجلي في تلك الوجوه آيات الروعة والخشوع. لكنّ الاصوات المخاطبة لم تصل اليه. وكان ثمّت ملئاً أنباع بيتهوفن في صممه، لأن التقادير قضت بأن يحتم على سمعه طول الحياة.

جمة في حياة من تتغذى عبقريته بالعثمات والعبرات، وفي أظهر المكروبات في حياته الخارجية يبدو أنه — شأن جميع الأفذاذ والمتفوقين في الشعور والادراك — كان منهل الآلام في قرارة ضميره وينبوع الحسرات والكروب كان يتفجر له من صميم وجدانه. وعن طريق التأثرات والانفعالات النفسية والهموم اتصل بجوهر الحياة الشاملة. وفي محراب اللهفة والأسى راض فنه حتى امتلك منه الأعنة وجنى من غوره وعداه غاية ما تناله المقدرة الانسانية في أعلى مراتبها وأسنى مجاليها. حتى غدا زعيم أركان الموسيقى بين المتقدمين والمتأخرين

ترى بماذا يشتري المرء السعادة والعافية والطمأنينة؟ أبالفضل والتضحية والنبوغ والاحسان — كما يقولون؟ لقد جمع كل ذلك في بتهوفن واتسع منه، ولكنه كان من أشقى بني العالمين. وأخذت بوادر تلك العلة القاسية تتسرب الى سمعه وتتفاقم أمرها حتى أوصدت دونه عالم الاصوات. وكان يعذبه الفقر والمسؤولية والجهاد المتواصل ونكران الجميل ممن كان لهم غوثاً، وتراكمت عليه الآلام والخيبات حتى زهد في حياة المدينة وعمد الى عزلة هايلجنشتاد قريباً وهو في الثانية والثلاثين. وهناك كتب «وصيته» الشهيرة في صيغة رسالة كانت في الراجح موجهة الى أخويه، وقد وجدت بين أوراقه بعد وفاته وتاريخها ٦ اكتوبر ١٨٠٢، وهاك سطوراً من تلك الوصية البالغة في التأثير والحزن:

اعلموا انتم الذين ترمونني بالكراهة والمرارة، وتحيزون عليّ نعوت التوحش والشكاسة، انكم في هذه التهم أظلم ما تكونون. انكم تجهلون الاسباب الخفية التي تضطرني الى الانفراد والظهور بمظهر الوحشة والنفور. ذلك أن قلبي وفكري متعطشان الى الرفق والحنو منذ نعومة أظفاري، وبي توق يدفعني دواماً الى تخيل اشياء عظيمة نبيلة والسعي الى تحقيقها. ولكني فوق جميع آلامي ومصائبي نجمت بسمعي في علة لا أرتجي منها الشفاء، ولا يزيدها جهل الاطباء الا تفاقماً. وعاماً بعد عام أرى آمالي في تهدم وانهيار. لقد جئت العالم بنفس حارة وروح متلظية، ومزاج رقيق حساس، فصدمتني الاحوال واقسرتني على أن أسجن نفسي في العزلة وأن أفني حياتي في الوحدة والانزواء

ربتاه! إنّ نفرك من الاماني يتغلغل الى مجاهل ضميري وخفاياه وأنت تقلي عليم! انك تدري بان هذا القلب المنتظر لم يخفق قط إلاّ بحب بني الانسان وبالرغبة في الخير والصلاح!.. »

فن بتهوفن

فن بتهوفن غنيٌّ بتنوعهِ وتفرعهِ، غناهُ بطرازه الفاخر ونفسهِ العالي. ولم تكن وفرة النتاج والاينياع لتغض من جودة الاتقان وطرافة الابتكار. بل هو في كل فرع من ذلك الفن، وفي كل غصن من ذلك الفرع، اهتدى الى حسٍّ جديدٍ يعالجهُ ومعنىً مستحدثٍ يشدوه. مع انهُ لم يكن له من منهل يرتاده غير هوّة نفسهِ ووحبة ماضيهِ. هناك يسترق السمع من هاتيك الاصوات السالفة و «يلمسها» شوقة بعذوبة الذكرى، ويعكف عليها يعالجها ويرعاها حتى ينال منها أقصى الاسرار ومنتهى الغايات. ويرسلها بعدُ لغوة تترنح بمرح الطفولة وسذاجة النفثة وأنس العذوبة. انما ينوح في قرارها صوتٌ يحدّث بان اليوم غير الأمس، وبان الذكرى وليدة شوق استحال حقيقةً في عالم المحسوس فانطلق يستطلع بوادر الرجاء والامكان في عالم أسمى وأشرف، على ان ذلك الانتخاب مهذبٌ مثقف يتستر من نفسهِ بنفسهِ لا تشوهه المرارة ولا تقلقهُ الحدّة. فاذا تناجيك منهُ نفثة نفحاتٌ وفوراتٌ من الابتهاج والحبور فتحار من أي السبل نفذ الوجيب الى الانشاد. وطريقة بتهوفن هذه في إغفال جراحهِ وهو في أشده عجيبة الفعل في النفس الموسيقية وكثيراً ما تجلب الدمع الى المآقي

لكل نغمة عنده معنى، ولكل نبرة مساجلة، واذا هدأت الأوتار وسكنت الآلات فسكوتٌ ملؤهُ عجيج القلوب وخفيف الاسرار واعلان الخفايا. ذلك ان بتهوفن العالم في أصول الفن، البارع في تخريج الانغام ونسجها وتفسيرها، يخدمه المفكر في مناحي الحوادث وتصاريف الاقدار، والفني الذي يلفّ الحقائق القاسية بدثار من الملاحة والرونق والبهاء، والرجل المتوجع المنفعل بمقتضيات حياتهِ وبأعمال البشر، والمتحمس العظيم للموسيقى الذي يرى مزاولتها

ضرباً من طقوس العبادة . وهو الذي عرّف فيه الموسيقى بما يلي :—

الموسيقى » وحيٌ » يفوق كل علم ويسمو على كل حكمة . وهي المقدمة الوحيدة المجرّدة من الجسديات والمحسوسات ، التي تمضي بنا الى ملكوت المعرفة الباطنية . ذلك الملكوت المحيط بالانسان في حياته منذ التي تزوقها المقاومة والنزاع ، والذي لا يجهر خفاياهُ ويكشف عن كنوزه الا عن طريق هذا العامل الأثيريّ الخفاق المعروف باسم الموسيقى » .

تلحيناته التسعة العظمى

وأبدع ما صنّف سمفونياته التسع التي وصفها ڤاجنر (هذا العظيم الآخر الذي تمكّن اقتران اسمه باسم بتهوڤن) بقوله « ان بتهوفن دوَّن بها تاريخ الموسيقى وأدمج فيها جميع ألحان العالم » . والسمفونيا في اصطلاح اهلها قطعة موسيقية من صيغة السوناتا على انها أوفى بياناً وأجل اكتمالاً ، وذات بنود وأقسام تتفاوتُ بين الاسراع والتباطؤ لكل منها « رويٌّ » موسيقيٌّ خاص . وقد وضعت لتوقيع الاوركسترا الكبرى . ومع ان سمفونيات بتهوفن تعلن عواطف ومدركات مختلفة فهي كذلك سجلٌ لما كان يفكر فيه ويشعر به لدى تدوينها وانشائها

أما السمفونيا الاولى فعلاقتها بأخواتها واهية . وليست في أصول الفنّ والاصطلاح الموسيقي والمضمون الفنيّ لتظهر مقدرة مؤلفها . واما السمفونيا الثانية فعلى النقيض . اذ هي تتوهج بحرارة الشباب ونبل العواطف ، وتنشر أوهام الرجاء ورؤى الحياة ، وتجاهر بعقيدة الجد والحب والتضحية . . . فكم من استسلام في ثقة ، وكم من جولةٍ في اطمئنان ، وكم من احكام في ارتباط الانغام وتجاوزها ، وبحقٍّ دُعيت هذه السمفونيا انشودة الشباب الوطان الحالم المستسلم

وفي انتظام العدد تأتي السمفونيا الثالثة المدعوة بسمفونيا البطولة ، وفي حكايتها ما يوضح جانباً من خلق بتهوفن الأبي ، رغم فقره ورغم حاجته . فقد باشر هذا التلحين بدعوة من برنادوت يومئذٍ سفير فرنسا في النمسا ، وتحت وقع اسم نابليون الذي كان يكبره الموسيقي ويرى فيه تمثل العبقرية الأكبر في

ذلك العصر ورجل التفوق الشخصي والديمقراطية الخالصة جعل لسمفونيته هذا العنوان «الى نابليون بونابرت . . . من لدوِج ڤَن بتهوفن» . وكان بونابرت اذ ذاك قنصلاً اول في الجمهورية الفرنسية الجديدة . وما خط بتهوفن آخر سطر منها في سنة ١٨٠٤ حتى ذاع الخبر بأنَّ القائد العظيم قد جلس على عرش الملوك وتوّج امبراطوراً على الفرنسيس . والفتى الذي كان يعتقد بأن اقدام نابليون وبطولته نتيجة حبه لوطنه وسعي في سبيل نشر الحرية في العالم — خاب ظنه عند تلقي هذا الخبر ، وحنق على أنانية القائد فمزق عنوان السمفونيا الأول واستبدله بآخر يدل على خيبته في الاعجاب به فدعاها « سمفونيا البطولة للاحتفاء بذكرى رجل عظيم » . ولم تُنشر الاّ سنة ١٨٠٦

وهي تمثل في ألحانها عناء جميع الغزاة والفاتحين منذ أول نشأتهم الى تغلبهم في وقائعهم الى ارتقائهم ذروة المجد بعد مرورهم بكل عذابٍ وكلّ تكاليف يبيئة للمتفوقين عجز الخاملين وغرورهم . وفيها نبذة تستحمل «كارش» جنائزي وكأن بها شيّع بتهوفن ذلك الرجل الذي غزا العالم ، الى لحده قبل ان ينطفئ سراجه في منفاه البعيد بسبعة عشر عاماً . وهي عميقة الحزن مترعة بالغمّ والحسرات الرائعة الهادئة . فلا يخفّ وقعها الرهيب إلاّ في النهاية اذ يرتفع البطل بالموت الى سماء الغبطة الدائمة

وقد أهدى السمفونيا الرابعة إلى جولييتا جيشار ، احدى النساء اللائي أحببنَ بحرارة في العواطف وطهرٍ في الخيال . فوصف فيها الحبَّ المتراكم على نفسه المعطوفة المحرومة ومقدار ما يشعر به من الحلاوة المرضية والسحر الفتّان وفي هذه السبيل الملتوية بين مرارة الحرمان ووعود الغرام نصل الى السمفونيا الخامسة ، أشهر اخواتها ومن أروعهنَّ جمالاً . وضعها اثر تلقيه تلك الضربة الظالمة من يد القدر ونفيه عن عالم الاصوات والنبرات فقد جثمت نفسه عندئذٍ حول وقع القضاء وأخذ يتساءل عن غاية الحياة وسبب الألم ؟ ومضى يتوغل من استفهام الى استفهام لعله يعثر على الجواب ... ومن ثم الجوّ الروحاني الخفيّ المخيم على تلك الالحان . وهو الذي حمل اهل الباطنية والثيوصوفية في الغرب على ضمّ تلك القطعة الى موسيقاهم فدعوها « سمفونيا الكارما » . والكارما

عندهم ضرب من القدر [نسخوا معناها كما نسخوا لفظها عن الهندية] تعني اتصال العلة بالمعلول والنتائج بالاسباب اتصالاً لا يقبل التوسط والانفصال

وقد وصف فاجنر هذا الطور من فن بتهوفن بما يلي : « صمم بتهوفن فلاشى العالم حياله هو الذي لم يكن يصله بالارض غير حاسة السمع ، فيما كان يعيش بعد انقطاعه عن كل ما عداها . والآن عند ما يسير هذا الحالم المأخوذ في شوارع فينا يحدق فيما حوله بعينيه الكبيرتين ، ماذا تراه يبصر من كل ذلك ، هو الذي يقطن ضمن جدران نفسه الحافلة بالاحلام والانغام ؟ أيمكن أن يكون في العالم موسيقي بلا سمع ؟ وهل في وسع انسان ان يتخيل رساماً بلا نظر ومصوراً بلا اصابع ولا يد ؟ على تلك الحال ودون ان تقلقه الآن جلبة الحياة ، ها هو ذا متفرغ للانصات الى ما يدوي ويترنم في صميم ذاكراته ، مساجلاً عالماً لا يخلقه له احد . عالم يعيش في رجل بصر الموسيقي وسمعه يتحولان الى بصيرة ترى الاشياء من الداخل . فيكلمه جوهر البرايا ويناجيه ضمير الوجود ويتكشف له ضياء الجمال الهادىء . الآن أصبح يفقه سر الغاب والنهر والروض والاثير الازرق ، والجماهير المبتهجة ، وغرام العشاق ، ونشيد الاطيار ، وسوابح الغيوم وزئير العاصفة ، ولذاذة الهناء . وفي هذا الوقت وفي هذا الصفاء العجيب تنتشر عبقريته في كل ما يتخيل وتتغلغل في كل ما يرى . فالثورة المولدة عنده في أشدها ، وجميع آلام الحياة ترتد عنها حسيرة بعد إنالتها وقوداً لزكوتها . قد بسط في هذه السمفونيا الخامسة فكره المكنون وآلامه المبرحة ، وغبطة المظلوم ، وأحلامه المتناثرة بانكسار القلب والقنوط الكئيب . قصيدة وجيعة ... مرثاة قبل الموت لرجل يحتجنه مقدور عنيد ، وكل مغامرة في سبيل الخلاص باطلة . وحياة الرجل تنقضي يوماً بعد يوم بين التمرد والامتثال الا أن يده ما فتئت جاهدة ، وجبينه عالية ، ووجهه في مصابه يقابل وجه الشمس ، وربما يختم هذه المصنفات التي لا مثيل لها ، بنشيد جبار للمجد والانتصار تتكسر فيه روح الملحن قيودها وتطير سنية متلحفة الى أجواز النعيم » .

أما السمفونيا السادسة فهي أنشودة الطبيعة . فاغنت الاوتار حياتها ،

ولا عزفت الآلات او رتلت الحناجر بمثل هذه الانغام الفضية لامتداح جمال الاشياء والبرايا والموجودات . بلاغة وأيُّ بلاغة في تلك الجمل المشبعة بالتشوق والرونق والرواء ، وتلك الصور الناطقة بصدق الحياة ، وذلك النور الوضاح وتلك العطور الفائحة من مواطن الانغام في مهبط الآفاق . وذلك السكون الرضي عند منعطفات الغياض وفي ظل الغصون . وذلك المرج الوادع المترامي الاطراف تحت سيول الالحان المصقولة كالمرايا ، المجلوّة كالاشعة . وإذ يتمّ وصف الطبيعة يأتي الانسان : رجل الخلاء القويّ الجلود المؤمن ... فتفاجئه أهوال العاصفة ويشعر بالرعب والوحدة والفزع ، ثم لايلبث ان تعود اليه الطمأنينة فينشد نشيد الشكران .

والسمفونيا السابعة مهداة الى الاهة الوزن والتناسق والانسجام الرامزة الى الاحتمال والصبر الباسم عند تراكم الاوصاب . إنك لتسمع في الاوركسترا شهيقاً وزفيراً وتكاد تلمس العبرات المتناثرة ، ثم تتجمع الالحان في أغنية حزينة تقبض على القلب بعقابيل النقمة والحسرة والجوى . كانما الانسانية كلها تقاسي دمعاً ونكالاً في تسلقها سبيلاً متعرجاً شائكاً كلُّ خطوة فيه مرحلة عذاب . ولكنها لا تفقد الايمان وتظلُّ متطلعة الى الانتظار في النهاية وتتمثل طيفهُ يلمع بعيداً كوميض الرجاء .

والسمفونيا الثامنة أنشودة البشاشة والرضا . لان بتهوفن يرى ان الرجل الخالص النية الصافي الطوية اذا هو استلم لطمأنينة النفس يظل بشوشاً راضياً مهما يلقَ من الحياة ومن الناس . وفي هذا التلحين كثير من الحلاوة الرائقة والدلال اللطيف حتى لتخالة أغنية ينشدها الاطفال وهم يقطفون الازهار في صباح ربيع بهيّ .

وهكذا من أعجوبة الى أعجوبة ومن تحفة الى تحفة ينتهي بتهوفن الى تصنيفه الفريد الأعظم الذي قال فاجنر على ذكره « أليس منا غروراً وسماجة ان نعالج تلحين السمفونيا مع علمنا ان منتهى ذلك اوملة بتهوفن في السمفونيا التاسعة وهي البحر الفيّاح بهولها وجمالها . وكل ما نلحنهُ بعدها فأقاة عيّ امام تلاطم الرياح وهدير الامواج » .

هذه السمفونيا التاسعة من الأهمية بحيث أفردها الناقد الموسيقي « ماتيو باروسو » كتاباً تاماً في ما يزيد على مائتي صفحة . في الاوضاع الاصولية وفي بلاغة البيان وعظمة الوحي جميعاً ارتفع بتهوفن الى علو شاهق باذخ لم يدانه قط مظهر من أيّ المظاهر الفنية . وأفرغ فيها من المدركات الروحية ونزعة الانسان الى الاتصال بالله وتعرُّف الروح العليا الشاملة حتى ان السامع يعتريه بحرانٌ وينتابه الخوفُ والوجل كأنما هو وقف عند عتبات الغيوب ليطلع على ما وراء هذه الارض من الاسرار الخفية الباهظة . ويخيل اليك ان مئات الاصوات والمنشدين والعازفين يتقاطرون جماعات وأفراداً من أقطاب الارض السحيقة ليتلاقوا ويتعاونوا على ارسال نشيد واحد عظيم ، هو نشيد الاطمئنان عند الفرح والثقة حيال الرهبة . لان هذه القطعة الخطيرة نشيد الفرح الشريف العالي نشيد الاستئناس بالكائنات المجهولة والاستسلام للارواح النقية القادرة

***

هذه صورة منتبة من بتهوفن الذي لا تحيد تصوره الا ما ثره . هو اكبر موسيقيّ في التاريخ وليس ليعلو عليه أحدٌ وجلّ ما يمكن ، هو ان يرتفع الى سماء عبقري آخر أو عبقريان اثنان من بعض وجوه فنهما فهو حقيق بكل حفاوة جدير بكل اكرام واعجاب . وبحسبهُ جبرليت تاين الناقد والمؤرخ الفرنسي ، رابع الاعمدة العظيمة التي تقوم عليها قبّة الفنّ . أما الثلاثة الآخرون فهوميرس اليوناني ، وميكلانجلو الطلياني ، وشكسبير الانكليزي

هذا هو بتهوفن . فلتعزف المعازف ، ولتنشد الاجواق ، وليخطب الخطباء وليكتب الكاتبون ، فشيء من ذلك لن ينتهي اليه صداهُ عن طريق السمع الانساني . اما روحه التي غاصت في تلك الاعماق البعيدة من الألم الأصمّ والحرمان الأبكم ثم حلّقت بعبقريتها وفنها في تلك الاجواء العالية فماذا عساها تصنع إذ تشهد مظاهر التكريم والتعظيم ؟ (١)

أنها تذيب ما تشعر به في ابتسامة صغيرة بطيئة ... ابتسامة العبقريّ الذي خبر الناس والحياة فتألم ، وتحوَّل الى منق نفسه فأبدع

(١) الاحتفال بانقضاء مائة سنة على وفاته سنة ١٨٢٧